من مباحث العلاقة بين الزيدية والمعتزلة:

****

هل أخذ الإمام الهادي يحيى بن الحسين علم الكلام عن أبي القاسم البلخي؟

محمد شرف الدين الحوثي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد..

ممن ذكر ذلك السيد يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠هـ)، حيث قال في كتابه (المستطاب- مخطوطة المنصور: ٣ب): «وكان شيخ الهادي في الأصول أبا القاسم البلخي المعتزلي، فعليه أخذ الأصول وعلم الكلام؛ فلذلك ترى أقواله في الأصول متابعة لأبي القاسم في الغالب». اهـ

ثم الجنداري في (تراجم رجال الأزهار: شرح الأزهار[١]: ١: ٧٠)، قال في ترجمة أبي القاسم: «وأخذ عنه علم الكلام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، ذكره يحيى بن حميد». اهـ.

ويحيى بن حميد فيما يبدو هو يحيى بن محمد بن حسن بن حميد المقرائي (ت ٩٩٠هـ)؛ فإذا صح ما ذكره عنه الجنداري فهو أول من ذكر ذلك؛ ولم أعلم في أي كتب المقرائي ذكر ذلك ولا ذكره الجنداري.

ثم السيد عبد الله بن الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي (ت ١٣٧٥هـ) في كتابه (الجداول الصغرى- نسخة إلكترونية: ٢: ١٨٤)، قال في ترجمة أبي القاسم فيمن اسمه عُبيد الله: «عبيد الله بن أحمد بن محمود البلخي

(١) طبعة مكتبة التراث الإسلامي، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

البغدادي، شيخ الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام في علم الكلام، شيعي إمام بغداد، كنيته أبو القاسم، له مصنفات منها طبقات المعتزلة، أهمله مولانا، توفي سنة تسعة عشر وثلاث مائة». اهـ.

هؤلاء هم الذين ذكروا ذلك فيما بلغ إليه علمي؛ وقولهم - وهو بهذا التصريح- ليس مثل قول الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى عليه السلام (ت ٨٤٠هـ) في آخر كتابه (الدرر الفرائد- مخطوط: ٣: ٣٤١) الذي قال: «واعلم أنه عليه السلام في أكثر مصادره وموارده في أصول الدين يوافق ما ذهب إليه الشيخ أبو القاسم البلخي رحمه الله، ولا أدري هل اتفق النظر من دون مراجعة للبغداديين أم بعد مراجعة لهم وقراءة». اهـ

فهل ما ذكروه من أن الإمام الهادي عليه السلام كان تلميذًا لأبي القاسم في علم الكلام صحيح حصل واقعًا، أم هو وهم سببه: ما يظهر من توافقهما في المذهب الكلامي، ودخول الإمام إلى طبرستان وآمل قبل إمامته حيث كان أبو القاسم هناك كاتبًا للإمام الداعي محمد بن زيد؟

الراجح الذي يظهر لي إلى الآن إجابة عن هذه السؤال هو الأمر الثاني؛ وذلك لأمور كالتالي:

١: أن الإمام الهادي ولد سنة (٢٤٥هـ)، وأبو القاسم ولد سنة (٢٧٣هـ)، ذكره ابن حجر (لسان الميزان: ٣: ٢٥٥) عن المستغفري أن أبا القاسم ولد سنة (٢٧٣هـ)، وذكره الزركلي (الأعلام: ٤: ٦٥)، ولم أر مَن ذكر ذلك غيرهما فيما طالعته من تراجم لأبي القاسم.

٢: وأن عمر الإمام الهادي في سنة ميلاد أبي القاسم (٢٧٣هـ) كان (٢٨) عامًا، والإمام في هذه السن كان قد فاق الأقران واشتهر بالعلم بين الخاص والعام، وكان أبوه وعمومته يجلونه ويعظمونه، بل ولا يخاطبونه إلا بالإمام،

يعني: أن الإمام قد درس وحصل علوم العقيدة وأصبح له رأيه الخاص في المسائل الكلامية والبلخي لَمَّا يُـخلقْ بعدُ!

٣: أن الإمام الهادي دخل اليمن أَوَّلًا (في الخرجة الأولى) وبويع إمامًا وعمره (٣٥) عامًا، وذلك سنة (٢٨٠هـ)، وهذا يعني بالتأكيد أنه قد بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق واكتملت فيه شروط الإمامة، وأبو القاسم في هذه السنة كان في سن (٧) السابعة من عمره، وسن السابعة كما نعلم هو سن «الأول الابتدائي» بلغة عصرنا!

٤: أن الإمام الهادي دخل اليمن ثانيًا (في الخرجة الثانية) وعمره (٣٩) عامًا، وذلك سنة (٢٨٤هـ)، وأبو القاسم في هذه السنة كان في سن (١١) الحادية عشرة من عمره!

٥: أن الإمام الهادي عاش في اليمن بعد ذلك إلى أن توفي فيها سنة (٢٩٨هـ)، والبلخي لـم يدخل اليمن قط.

٦: أن ما سبق - وهو يحيل هذه التلمذة قطعًا- هو على فرض أن سنة ميلاد أبا القاسم كانت (٢٧٣هـ) كما ذكر ابن حجر في (لسان الميزان)، بيد أن هناك ما ينفي صحة هذا التاريخ؛ ففي (أخبار أئمة الزيدية[١]: ٨٧) يرد في رواية قولُ أبي القاسم البلخي[٢]: «كنت في مجلس الداعي محمد بن زيد بجرجان ...» إلخ، وفيها (ص١٢١) إشارة إلى هذه الرواية أيضًا، وفيها (ص١٢٢) أن دعوة الإمام الداعي محمد بن زيد كانت في شوال سنة (٢٧٠هـ)، وفي نفس الصفحة يرد قول أبي القاسم: «ما كتبت بين يدي أحدٍ إلا استصغرت نفسي حتى كتبت للداعي محمد بن زيد، فخيل إليَّ أني أكتب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»؛

(١) وهي النصوص التاريخية التي جمعها وحققها فيلفرد ماديلونغ.
(٢) وأصلها في كتاب (جلاء الأبصار) للحاكم الجشمي، في المجلس التاسع عشر.

ومن ثمة فإن أبا القاسم والحال هذه لا يكتب بين يدي الإمام إلا وقد بلغ مبلغ الرجال، فإذا اعتبرنا أنه كتب للإمام الداعي بعد السنة التي بويع فيها (٢٧٠هـ)؛ فعلى أحصف تقدير يكون عمره (٣٠) عامًا، فيكون ميلاده في سنة (٢٤٠هـ) قبل خمس سنوات من ميلاد الإمام الهادي.

٧: فإذا كان دخول الإمام الهادي إلى (طبرستان) و(آمل) قبل إمامته هو بعض ما عول عليه من قال بهذه التلمذة، فإنه لـم يدخلهما دخول تلميذ طالب للعلم، بل دخول عالـم متمكن مشهور بذلك بين الخاص والعام، وقد كان أبوه وعمومته يعظمونه ولا يخاطبونه إلا بالإمام[1]، وقد صنف وعمره (١٧) سنة، فإذا كان الإمام على سبيل الفرض قد لقي أبا القاسم حينها - ولـم أر أحدًا ذكر بينهما لقاءً- فإن لقاءهما سيكون لقاء الند للند، لا لقاء التلميذ للشيخ!

٨: أن الإمام الهادي حين دخل (طبرستان) و(آمل) لـم يلتق بالإمام الناصر الأطروش، ولـم يلتق بالإمام الداعي محمد بن زيد الذي كان أبو القاسم كاتبا له؛ والراجح أنه دخل (آمل) بعد سنة (٢٧٠هـ)؛ إذ ذكر الإمام أبو طالب في (الإفادة: ٩١) أن قدومه (آمل) والإمام الناصر الأطروش مع الإمام الداعي بجرجان، وأنه سكن حجرة في خانٍ وامتلأ الخان حتى كاد السطح يسقط وعلا صيته، وأن الحسن بن هشام وكان على وزارة الإمام محمد بن زيد، قد كتب إلى الإمام الهادي بأن ما يجري يوحش ابن عمك، فقال: ما جئنا ننازعكم أمركم، ولكن ذكر لنا أن لنا في هذه البلدة شيعة وأهلا، فقلنا عسى الـله أن يفيدهم منا. وخرجوا مسرعين وثيابهم عند القَصَّار وخفافهم عند الإسكاف ما استرجعوها. وعدم لقاء الإمام الهادي بالإمام الداعي،

(١) انظر الإفادة للإمام الناطق بالحق أبي طالب: (٩٠- ٩٢).

وقصر المدة التي بقي فيها في (آمل) والسرعة التي خرج بها منها، ويُلحظ ذلك مما ورد في (الإفادة)، كل ذلك يجعل التقاء الإمام بأبي القاسم بعيدًا جدًّا.

٩: أن كتب الزيدية المعتبرة المعتمدة التي عنيت بترجمة الإمام الهادي لـم يرد فيها ذكر ذلك، لا في (تتمة المصابيح) لعلي بن بلال الآملي، ولا في (الإفادة) للناطق بالحق أبي طالب، ولا في (الشافي) للإمام عبد الـله بن حمزة، ولا في (الحدائق الوردية) للشهيد حُميد، ولا حتى في (مآثر الأبرار) لابن فند الصعدي.

١٠: أن مما يؤيد عدم وقوع ذلك أن المعتزلة أنفسهم لـم يذكروا شيئًا عن هذه التلمذة، خصوصًا الحاكم الجشمي الذي له اطلاع وعناية بذكر ما للمعتزلة من علاقات بأهل البيت عليهم السلام.

** ** **